المحاضرة الثانية، مدخل إلى النقد الأدبي الحديث (02):

تمهيد:

يعدّ البحث في تفاصيل ومداخل مادة النقد الأدبي الحديث من أكثر البحوث صعوبة في ظل النقاشات الواسعة والكتابات المستفيضة في هذا المجال، لاسيما في ظلّ تداخل موضوعاتها، وتشابك قضاياها ومسائلها المتعددة، وسنحاول في هذه المحاضرة، التطرق إلى مرجعيات النقد الأدبي العربي الحديث بقطبيها: العربي والغربي، ثم الحديث عن الصراعات النقدية عند العرب في بدايات ومنتصف القرن العشرين، مع إيجاز سمات النقد الأدبي العربي الحديث وأهمّ قضاياه، وفق ما أمكن إيجازه.

1. مرجعيّات النقد الأدبي العربي الحديث :

تنوّعت مرجعيات النقد الأدبي الحديث عند العرب وتعدّدت روافده ما بين الدعوة العربية والإسلامية والدعوة الغربية، حيث انفردت كلّ واحدة من تلك المرجعيات بخصوصياتها الفنية والفكرية، كما انبرى جمعٌ من النقّاد الذين تبنّوا حركتها، يدافعون عنها ويدعمون آراءها ويواجهون خصومها.

1.1.**المرجعيّة العربية والإسلاميّة:** تأثّر النقد الأدبي الحديث بالثروة النقدية العربية التي خلفها نقادنا العرب القدماء، وأصحاب هذا الاتجاه كانت ثقافتهم عربية إسلامية خالصة، مثل (مصطفى صادق الرافعي) الذي اعتمد على كتب النقد القديم في نقده للأدب، مثل المثل السائر، الشعر والشعراء، البيان والتبيين وغيرها، وكان الرافعيّ وفيّا حريصا على تطبيق المذهب القديم في قراءة النصوص والحكم عليها، حتى قيل عنه (إمام الأدب وحُجّة العرب)، يقول: "اللغة العربية لا تزال لغة العرب، في أصولها وفروعها، والدين الإسلاميّ لا يزال كما هو وكأنّه نزل به الوحي أمس، لا يفتننا فيه علمٌ ولا رأي، ولابدّ من الحرص على اللغة حرصنا على الدّين، فكلّ منهما قائمٌ كالأساس والبناء، ولا منفعة فيهما إلا بقيامهما معا"[1] وكان نقده يقوم على تتبع الجزئيات وتصيد الأخطاء اللغوية والنحوية، ويتحرّى السرقات الأدبية، ويفاضل بين الشعراء كما ينقد شكل القصيدة في بنيتها العروضية والبلاغية تماما كما هو الحال بالنسبة للنقد العربي القديم، ولا يقبل أبدا المساس بالقيم الإسلامية أو التشكيك فيها، وهو ما نلمسه في نقده لطه حسين.

2.1. **المرجعيّة الغربية:** اتصل النقد العربي الحديث اتّصالا وثيقا بالنقد الغربي، ومذاهبه، "فخضع نقدنا لما يخضع له النقد الغربي الحديث من مذاهب وتفسيرات علمية موضوعيّة مختلفة للنقد، فهناك التفسير النفسي للنقد والأدب، والتفسير الجمالي، والفلسفة المثالية والفلسفة الواقعية، وغيرهما من المذاهب الفلسفية، التي وجّهت النقد الغربي وجهة جديدة، وصار النقد تابعا لها، وصارت هي الرائدة الموجّهة لخطواته، وتبعه في ذلك نقدنا

---

[1]. ينظر، خالد يوسف، في النقد الأدبي وتاريخه عند العرب، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1987، ص118.

العربي الحديث"[1] ، فكتب (العقاد) ابن الرومي حياته من شعره، متأثرا بالدراسات السيكولوجية الغربية، وكتب (طه حسين) مع المتنبي، متأثرا بالنقد التاريخي والنقد النفسي، وقد حاول أصحاب هذا الاتجاه ترسيخ مبادئ المذاهب النقدية الغربية في النقد العربي، وثار بعضهم على المنهج النقدي العربي القديم القائم على الانطباعية والتأثّرية داعين إلى ضرورة اتباع النقد الغربي في نظرياته كلّها بدعوى أنها تتجه إلى الموضوعية والدقة العلمية.

2. الصراعات النقدية عند العرب في بدايات ومنتصف القرن العشرين:

طالعتنا في بدايات ومنتصف القرن العشرين خصومات نقدية عنيفة بين الأدباء النقّاد، لا سيما في مصر، حيث وقع صراع بين المدرستين التقليدية والتجديدية في الأدب والنقد، ودار الصراع حول المعايير والمقاييس النقدية التي ينبغي اتّباعها في قراءة النصوص الأدبية، لكنّ الصراع تجاوز حدود الأدب لينتقل إلى القذف والطعن في الشخصيات ذاتها، فتحول النقد إلى انتقاد غير هادف، تحركه الميولات المذهبية والسياسية والاتجاهات الفكرية المتباينة.

فالناقد (سلامة موسى) مثلا، أسرف في ازدرائه للأدب العربي القديم والانتقاص من شأنه، في مقابل حبّه وتعلّقه الكبير بالأدب الغربي، فيقول في مقدّمة كتابه (اليوم والغد): "كلّما ازددتُ معرفة للشرق، ازددتُ كراهية له وشعرتُ أنّه غريب بالنسبة إليّ، وكلّما ازددتُ حبّا للغرب واقترابا منه أحسستُ أنّه يمتُّ إليّ وأنّني أمتُّ إليه"[2]، أمّا (الرافعي) فقد بالغ في حرصه على اللغة العربية وقواعدها في الأدب، وعلى جودة الكلام وبلاغته، وكانت آراؤه صارمة تجاه الشعر الجديد ومعانيه، كما وصف (طه حسين) بالغفلة والتعصب والجمود في بعض أفكاره "وعاب عليه تجرّده العلمي لاسيما التجرّد الديني، حتى انتهج مذهب ديكارت في بحثه في الشعر الجاهلي، وقال ينبغي أن ننسى لدى البحث قوميتنا وديننا وكل ما يتصل به"[3] مما حز في نفس (الرافعي) الحريص على لغته ودينه فردّ عليه ردّا عنيفا.

كتب (عبد القاهر المازني وعباس محمود العقاد) مقالا في كتاب الديوان في الأدب والنقد 1921م بعنوان (صنم الألاعيب) موجّه لشاعر جماعة الديوان (عبد الرحمان شكري) ورد فيه: "شكري صنمٌ ولا كالأصنام، ألقت به يد القدر العابثة في ركن خرب على ساحل اليم، صنمٌ تتمثّل فيه سخريّة الله المرّة... فهو لا أسلوب له، إذ كان يقلد كلّ شاعر ويقتاس بكلّ كاتب، وينسج على كلّ منوال... وقد سبق لنا أن نبّهنا شكري إلى ما في شعره من دلائل الاضطراب في جهازه العصبي، وأشرنا عليه بالانصراف عن كلّ تأليف أو نظم، ليفوز بالراحة اللازمة له أولا ولأنّ جهوده عقيمة وتعبه ضائع ثانيا"[4]، وهو نقد قاسٍ لزميلهم (عبد

---

1. محمد عبد المنعم خفاجي، مدارس النقد الأدبي الحديث، ط1، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1995، ص121.
2. خالد يوسف، في النقد الأدبي وتاريخه عند العرب، ص118.
3. عز الدين الأمين، نشأة النقد الأدبي الحديث، ط2، دار المعارف، مصر، 1970، ص138.
4. عباس محمود العقاد وإبراهيم عبد القادر المازني، الديوان في الأدب والنقد، ط4، مطابع دار الشعب، القاهرة، مصر، 1997، ص70/57.

الرحمان شكري) الذي اعتزل نظم الشعر بعد هذا النقد غير المؤسّس ولا الممنهج الخاضع لخلافاتهم الشخصية.

وفي السياق نفسه، تحدّث صاحبا الديوان عن (أحمد شوقي) في مقال بعنوان "شوقي في الميزان"، أعابا عليه شعر المناسبات، واستخفافه بجمهوره، وابتذال أسلوبه، وانتمائه لجماعة المحافظين المتّبعين للشعر القديم، قالا فيه: "إنّ أمير الشعراء هذا وجنوده سوقة لا يفقهون للغيرة الأدبية وأريحية الفنون أقلّ معنى، ولا يفهمون من جمال الشعر إلا أنّه أسنى مروءة الدنيّ وأدنى مروءة السريّ... وإنّ المرء ليزدري العقل الإنساني نفسه أن قيل إنّ هؤلاء الصعاليك الفكريين الذين تقوم عليهم الإمارة الشوقية (نسبة إلى أحمد شوقي) من ذوي مزاياه وحملة أمانته في الأرض... ثم تلتفت إلى الأدب الذي يدّعيه أولئك الأميّون العارفون بالكتابة، الجهلة المتدثّرون بلباس المعرفة العامة، المتطفّلون على موائد الخاصة فترى عجبا" [1]، وفي هذا الكلام المحمول على النقد تجريحٌ لأحمد شوقي وزملائه من الشعراء المحافظين، وهو أبعد ما يكون من النقد العلمي الموضوعي الهادف، تعزّزه المبالغة في التحقير والغلوّ في الاستخفاف به وبشعره.

من جانب آخر، دارت معارك كلامية حادّة بين نقّاد الرابطة القلمية التي تأسست بالمهجر الأمريكي الشمالي (1921م) وبين جماعة المحافظين من الشعراء، فكتب (ميخائيل نعيمة) مقالا بعنوان (الحُباحب) في كتاب (الغربال) ينتقد فيه أتباع الشعر العربي القديم ويشيد في الآن ذاته بالدعوات الغربية التجديدية في الأدب فيقول: "هناك زمرة من المنتقدين الذين إذا قرأوا هذه السطور لا يدعون سهما في جعبتهم إلا رمونا بهم، هم ينظرون إلى ماضينا فيرونه مُحاطا بهالة من السؤدد والمجد والعظمة... فتّشوا عن موليير ليُضحكنا ويبكينا ويجعلنا نخجل من ذواتنا في وقت واحد، إنما اذكروا أن موليير لا يولد من درس المعاجم والعروض والقوافي وجوازاتها من خبن وخبل وطيّ وقص، موليير لا تحصره أبحر بين طويلها ووافرها ورجزها ورملها، لا تقف في وجهه خرافات وترهات وشرائع وأوهام، بل هو نبع جارف يتدفق من صدر الطبيعة"[2] في إشارة منه إلى ضرورة قطع جسور الماضي الأدبي والانصراف عن تقديسه وتمجيده مع وجوب الاطلاع على منجزات الغرب الحديثة في مجال التجديد والإبداع.

كما كتب مقالا آخر بعنوان (نقيق الضفادع) يدافع فيه عن الانتقاد المُغرض الذي تعرض له زميله الشاعر (جبران خليل جبران) بسبب قصيدته المواكب، وجاء فيه: "إنّ الإنسان أوجد اللغة ولم تُوجد اللغة الإنسان، فهي نحيا به لا هو بها، وتتغير بتغير أطواره ولا يتغير بتغير أطوارها، فهي آلة في يده وليس آلة في يدها، أمّا ضفادع الأدب فيعكسون هذه الآية ويجعلون الأديب أو من يدعونه أديبا، آلة في يد اللغة يتكيّف بها ولا يكيفها، فهو عبدها الذليل

---

[1]. ينظر، المرجع نفسه، ص111.

[2]. ميخائيل نعيمة، الغربال، دط، المطبعة العصرية، مصر، 1923، ص65/51.

وهي سيّدته المعززة المكرّمة"[1] ردّا منه على (العقاد) الذي انتقد قصيدة المواكب (لجبران خليل جبران) وقال بكثرة الأخطاء اللغوية فيها، لعدم حرصه على العربية وقواعدها، مما يضرّ بلغتنا ويسير بها نحو الركاكة والتدنّي.

كما كتب (جبران خليل جبران) مقالا بعنوان (لكم لغتكم ولي لغتي) يردّ فيه على منتقديه: "لكم من اللغة العربية ما شئتم ولي منها ما يوافق أفكاري وعواطفي... لكم من لغتكم البديع والبيان والمنطق ولي من لغتي نظرة في عين المغلوب، ودمعة في جفن المشتاق، وابتسامة على ثغر المؤمن... لكم منها ما قاله سيبويه والأسود وابن عقيل، ومن جاء قبلهم وبعدهم من المضجرين المملّين، ولي منها ما تقول الأمّ لطفلها والمُحبّ لرفيقته..."[2]، وهو مقال موجّه لمنتقديه في لغته وأسلوبه.

ونال (حافظ إبراهيم) هو الآخر حظّه من الانتقاد، من طرف معاصريه، وكذا (أحمد زكي أبو شادي) وغيرهما، غير أنّ تلك المعارك النقدية يكثر فيها اللغط والانطباعات الشخصية والغيرة والقدح في اللغة والقيم الدينية والأعمال الأدبية لدى هؤلاء، وهي في عمومها معارك يحرّكها عامل واحد هو الأساس في إذكاء نار الخصومة بينهم، وهو عامل القديم والحديث.

3. سمات النقد الأدبي العربي الحديث :

- التهافت على ترجمة النِّتاج الأجنبي، ومحاولة تطبيق نظرياته ومقاييسه على الأدب العربي، بغضّ النظر عن الفوارق البيئية بين الأدبين.
- دعوة معظم النقاد إلى منهجية جديدة في النقد أساسها العدل والموضوعية والأسس الثابتة من غير أن يوضّحوا معالم تلك المنهجية أو يحاولوا تطبيقها على الأقل.
- الإفادة من جميع التجارب الإنسانية في مضمار الأدب والفن والأخذ بما يُثري الأدب العربي ويساعد على تأصيل ذاته.

عموما، يمكن القول أنّ النقد الأدبي الحديث تجاذبته تيارات ومذاهب فكرية مختلفة، لهذا لم يثبت على حال، فهو سريع التقلب قوي التقليد مستلب الإرادة، يساير كلّ موجة عالمية طارئة، وفي هذا يقول (توفيق الحكيم): إنّ الفكرة المنسوبة إلى أوروبيّ تُحترم بغير بحث، والفكرة المنسوبة إلى مصريّ أو شرقي تُهمل بغير فحص[3].

1. أبرز القضايا النقدية في العصر الحديث :

- **اللفظ والمعنى**: انقسم النقاد في هذه المسألة على أنفسهم إلى ثلاثة فِرق، يرى الأوّل منها أنّ ميزة الشعر في ديباجته وحسن انتظام ألفاظه دون النظر في معانيه، فالشعر عند (عبد العزيز البشري) صنعة مزخرفة الديباج، ناصعة القول، وحِلية أدبيّة مُحكمة القافية، أمّا المعاني فتتوافر عند كلّ متكلّم، ويرى الفريق الثاني أنّ الألفاظ مطيّة للمعاني، والشعر

[1]. ميخائيل نعيمة، الغربال، دط، المطبعة العصرية، مصر، 1923، ص94.
[2]. جبران خليل جبران، المجموعة الكاملة، جمع وتقديم: أنطوان القوال، ط1، دار الجيل، بيروت، لبنان، 1994، ص93.
[3]. ينظر: خالد يوسف، في النقد الأدبي وتاريخه عند العرب، ط1، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 1987، ص142.

الحقيقي هو المعنى المجرّد وليس الشكل الملموس، فالشعر لا يقوم بالأشكال المُفرغة من المعاني، ومن هؤلاء (العقاد)، ويرى الفريق الثالث أنّ تمام الأدب في ائتلاف ألفاظه ومعانيه، وسلامة المعنى من سلامة اللفظ، ومن هؤلاء (طه حسين).

- **الشعر العصري**: كانت عصرنة الشعر من القضايا المهمّة التي شغلت النقاد المحدثين، فقد ثار (حافظ إبراهيم) على الشعر القديم ونادى بضرورة تغييره وعصرنته، غير أنّه وبرغم دعوته تلك، كان كثير الحنين إلى القديم، وسايره في أسلوبه وبنيانه وفي بحوره وأوزانه، وفي صوره وخياله، وبرغم توقه إلى عصرنة الشعر غير أنّ طبعه وما فُطر عليه في النظم، منعاه من الخوض في الشعر المعاصر.
- **تعريف الأدب والأديب**: اختلف النقاد المحدثون في وضع تعريفات جامعة للأدب والأديب، كلٌّ يعرّفهما انطلاقا من مدرسته ومذهبه الأدبيّ الذي يتراوح بين الرومانسية والواقعية والرمزية... فالنقاد الواقعيون يرون أنّ الأدب تصوير لواقع الحياة وتسجيلا أمينا لأصواتها، أمّا النقاد الرومانسيون ومنهم (العقاد) يرون أنّ الأدب رسالة تُوحي بها الحياة على ألسنة المختارين من أبنائها، وهو صلاة ومناجاة روحية خاشعة لا ينبس بها إلّا من يتطهّر من كلّ الأدران (الأوساخ) العالقة به، والشاعر عندهم هو من يُحسن وصف الطبيعة وجلالها، ومن يستخلص فلسفة الحياة ويعرضها بكلّ حقائقها.
- **المُقلّد والمطبوع**: يرى (العقاد) أنّ شرط الأديب أن يكون مطبوعا على القول غير مقلّد له في معناه ولفظه، وأن يكون شعره إبداعا لا تقليدا، أمّا (توفيق الحكيم) فلا يرى بأسا في طرق الموضوعات القديمة والتعرّض لأفكار شائعة، شريطة أن يصبغها بلونه الخاص، ويطبعها بروح العصر، ويعطيها من نفسه الإبداعي روحا متميّزة.
- **المفاضلات والموازنات**: وهي في عمومها أحكام أطلقها الشعراء بعضهم على بعض، مثلما كانت عليه في عصور النقد العربي الأولى، غير أنّ بعضها كان مؤسّسا على قواعد فنية بالرغم من تلاعب الأذواق والميولات الشخصية بها في كثير من الأحيان.
- **الألقاب**: أغدق النقد الحديث على الشعراء الألقاب، وهي في معظمها تقوم على تعليلات ذاتية خاضعة للآراء الشخصية والانتماءات الإقليمية، ولا تقوم على تعليل علميّ صحيح، فـ(شوقي) لُقّب بأمير الشعراء، و(حافظ إبراهيم) لُقّب بشاعر النيل لأنّه ولد في باخرة راسية على النيل، وحمل (خليل مطران) لقب شاعر القطرين لأنّه ولد في لبنان وأقام في مصر، واضطلع (بشارة الخوري) بلقب الأخطل الصغير لأنّ شعره يُقارب شعر الأخطل في المواصفات والمزايا، وهي كلّها ألقاب اعتباطية لا تخضع للتمحيص والميزان.
- **قضايا مختلفة**: من مثل نقد الصور الخيالية وموسيقى الشعر واختيار الألفاظ وسلامة اللغة، فقد تحدّى (الرافعي) المجدّدين بأن يأتوا بشيء من مِثل ما لديه من الصناعة البديعية، فلم يلق منهم إلا التهكّم والاستخفاف به وببديعه، كما أعاب (طه حسين) على (إيليا أبي ماضي) فساد بعض معانيه وتعقيدها وعدم استقامتها، وخروج بعض أشعاره عن القواعد

النحوية والعروضية للشعر، وهي في معظمها أحكام تقوم على أغراض شخصية لا تمتّ إلى النقد العلمي بصلة.

وبعد الحرب العالمية الثانية، ازداد الوعي الفردي والقومي نضوجا، وتجلّت معاني الوحدة القومية وضرورة التلاحم والتماسك، فاندفع الأدب العربي ومعه النقد نحو الالتزام السياسي والإصلاح الداخلي في كل قطر عربي، ودعا الأدباء والنقاد إلى ضرورة ترك الأحقاد الشخصية جانبا والانصراف نحو نقد موضوعي بنّاء وهادف يتناول مسائل الثورة والتراث والالتزام من وجهة نظر جديدة[1]، وأضحت الوحدة العربية من المسلّمات التي لا يمكن التغاضي عنها أو تجاهلها.

---

[1]. ينظر: المرجع السابق، ص123.